

خطوات على الشلال

إلى أسوان

بقلم : محمود تيمور



من رحلة بعنوان « خطوات على الشلال »
وصف فيها الكاتب سفرته الى موطن
السد العالي ، وزيارته لما هنالك من
آثار ومعالم ومنشآت .

لما دعيت الى حضور « ندوة الكتاب » فى « دار الثقافة » بمدينة « أسوان »
وثبت الى راسى على الفور حكمة لبعض هواة الترحل ، يقول فيها : « أطيّب الرحلات
وأجداها هى التى يقوم بها المرء على ظهر دابة ذلول » . والحق أن الرحلة اذا توافر
لها التمهّل والتؤدة أتاحت لصاحبها أن يستجلى المشاهد فى هيئة ورفق ، ويستوعب
الحقائق فى روية واستمتاع . بيد أن هذه الحكمة على وجاهتها عسيرة التنفيذ من
نواح عدة ، فى عصرنا الحاضر ، ولاسيما فى سفرتنا هذه ، ونحن نؤدى مهمة لا تحتمل
التباطؤ والتسويق .

لا أقل اذن من اتخاذ وسيلة للسفر ، غير الوسائل السريعة الخاطفة ، وأن
« قطار الصعيد » لطية حرية أن تبلغنا ما نريد .
انه ركوبة طيبة ، فيها راحة للمسافر بالنهار والليل ، وفيها مجال للتفرج
والتعرف والاستجلاء . فان « عربة النوم » تجمع لك فى مقصورتك كل أسباب
الطمأنينة لرحلة رخيّة هائلة .

ما ان قر على ذلك عزمى حتى نمت الى علمى أن المسافة بين « القاهرة » و « أسوان »
تتطلب أربع عشرة ساعة أو تزيد فى « قطار الصعيد » ، على حين ان الطائرة تقطع هذه
المسافة كلها فى نحو ساعتين اثنتين .

ولبثت أراجع نفسى لحظات ، ثم هتفت : لا شأن لى بالقطار ، فلن أقضى يوما
وبعض يوم ، حبيسا فى « عربة نوم » ! دعى أيها القطار المكسال ، لقد أصبحت
- والزمن زمن سرعة واغتنام - تثير الاشفاق والرثاء . أنت يا صاحبى على أبواب
المعاش . . . وأما أنت يا « عربة النوم » فلا أستطيع أن أستبقى نفسى هريعا بين
ذراعيك الدافئتين طوال ساعات وساعات . وأخشى ما أخشاه أن يتسرب منك الخدر
الى كيانى ، فاذا أنا أستمرى التراخى وأركن الى الخمول . . . ان الساعات التى
أمضيها فى صحبتك مجلبة للملل ، مبعثة على الضيق ، فالراحة والرفاهة - وان كانت

مستعذبة - اذا طالت وامتدت عادت مكروهة لا لذة فيها ولا متعة . نحن على موعد مع العمل الجاد ، والنشاط العارم ، والطموح البعيد ... نحن فى رحلة استطلاع ، نتعرف فيها مجد ماض غبر ، وجبروت حاضر تتجلى فيه صلابة العزم ، وصرامة الجهد ، وعبقرية الانشاء والتعمير ... اليك عنى يا غانية الامل الدابر ، ومرحبا بك يا غادة اليوم المشرق الجديد ... اليك عنى يا «عربة النوم» ، ومرحبا بك أيتها الطائرة!

ولمعت فى خاطرى مشاهد قديمة ، حين زرت تلك البقاع السياحية ، منذ ثلاثين عاما ونيف . لقد قطعت الرحلة من قبل فى ذهبية نيلية يجرها زورق بخارى ، وكنت يومئذ ضيف صديق كريم ، واستغرقت الرحلة خمسة عشر يوما . ومرة قطعتها بالقطار ، فاستغرقت ليلة وبعض نهار ، وهانذا أقطعها الآن على بساط الريح فى نحو ساعتين فهل تكتب لى سفرة قادمة الى موطن الفراشة متخذة من «الصاروخ» وسيلة انتقال ، فأبلغ مأربى فى دقائق معدودات ؟

سبحانك مبدع الكون ، ومودع الانسان مواهبك الغالية ... ماذا فى الغيب المحجب من أسرار وكشوف يفاجئنا بها العلم ، وتطالعنا بها الحضارة ؟ أتكون مطية المستقبل القريب أشعة الشمس أم ضوء القمر أم طاقة الذرة ؟ كل شئ محتمل الوقوع وكل أساطير الأولين مظنة التحقيق ، وأن الاحلام المفرقة فى الخيال لتصبح من الحقائق فى واقع الحياة .

دخلنا مطار القاهرة الدولى ... مبنى شامخ الذرى ، أبهاء فساح ، الواح مصورة تزين الجدران ، سلم متحرك ، مقصورات من زجاج ، أندية محدثة الطراز ، نشاط دائم يشعر بك بأنك فى سوق دولية عامرة . فتابعنا خطاى ، يملا جوانحي فخر واعتزاز .

واحتوتنا الطائرة المصرية الكريمة ، فما هى الا أن مضت بنا تصعد ، والبرد قارس ، والغيم ضارب ، وتحت أنظارنا رمال الصحراء كأنما هى بساط من ذهب ، وسرعان ما علت بنا الطائرة على مناط السحب فى أجواز الفضاء ، فاذا البساط الذهبى قد تحول الى غطاء من ذوب الفضة ، والسماء من حولنا باهرة الاشرار ، تمرح فيها أضواء الشمس . وبعد حين ظهرت الصوانى الرشيقة مرصوفة عليها ألوان الطعام ، وشغلنا بها وقتنا نصيب غداءنا الشهى ، ثم عدنا نتطلع من الطاق ، فاذا غطاء السحب الفضى من تحتنا قد تهتك وتشعث ، فتراى لنا ذهب الرمال المراق من جديد على أديم الصحراء ، ولا شئ غير الصحراء ... فيا ترى أين النيل ، وأين النخيل ، وأين نضرة الوادى الجميل ؟ لم تطل نجوى ، اذ استباننا رقاع خضر سرعان ما تلاحمت ، حتى استطالت بساطا سندسيا يشقه مسيل النهر الفيض .

ولم نلبث أن شددنا أحزمطنا على خصورنا ، فالطائرة وشيكة الهبوط فى مطار « الأقصر » ، وخرجنا اليه ، فاستقبلنا مبنى عصريا مزهوا بجذته ورونقه ، كل ما فيه يوحى بأصالة ذوق ، وبراعة فن .

وعدنا بعد قليل الى الطائرة ، تستأنف مضيتها بنا الى «أسوان» ، وعادت الرمال الذهبية تملأ عيوننا سهولا وكتبانا ، فالرمال فى هذه الرحلة طابعها الغلاب ، وما أقربها شبيها - لونا وغزارة - بالحمص فى موالد الاولياء الصالحين !

وتبدي النيل ، على حافته حاشيتان من خضرة زاهية ، وهو بينهما يتخايل ويتخطر ، ادلالا بقدرته على أن يحيل الارض الموات جنة فيحاء !
 وأخيرا نزلنا مطار « أسوان » . . . وهو على نحو مطار « الأقصر » في الجسد والرونق . وخرجنا الى بابه ، فتقدم منا رجل ربة في سمرة قانية ، على محياة بشاشة ، يرتدى جلبابا بلديا سماوى اللون ، وعرض علينا سيارته . انه سائق يملك سيارة فاخرة ، يتخذها مورد رزق ، فركبناها على بركة الله ، وانسابت بنا على طريق معبد عريض ، تتسامق بجانبه أعمدة المصاييح ، ثم راينا مجموعات من العمارات حديثة البناء ، جميلة التنسيق ، أقيمت مساكن للعاملين بالسد . ولما تدانينا من خزان « أسوان » أخذت أعيننا منشآت كهربية جديدة ، لاستغلال القوى المائية للخزان فى الانارة وغير الانارة من مطالب العمران . وقد ظلت تلك القوى طوال نصف قرن أو يزيد ، منذ اقامة الخزان ، تذهب هدرا ، لا ينتفع بها فى شئ . حتى عني بها العهد الثورى الحاضر ، وبها تجدد شباب هذا الشيخ الوقور ، الحزان القديم ، ونهض بأعباء اقتصادية يواكب بها أعمال التعمير فى جد ونشاط .

وتابعنا السير . . .

وصلت أمامنا ضاحية مستحدثة ، شرعت السواعد الفتية من العمال تنشئها على طراز عصرى ، تلك هى « مدينة ناصر » التى أريد بها أن تتلقى المد العمرانى الزاحف من المدينة . وليكون لها فى القريب شاو بعيد .

وبلغنا « نيوكاتاركت » - وهو « فندق الشلال الجديد » - تحفة هندسية رائعة اشتركت فى اعدادها وتشبيدها كفايات مصرية صميمة ، فمثلت وقتا أمام هذا الصرح الرفيع ، أجتلى فنا وصناعة . وفنتت ناظرى لوحتان بارزتان على النمط الفرعونى ازدانت بهما طلعة الفندق . وطالت وقفتى أتملاهما حتى أنبهنى صوت رقيق ، هو صوت أمين الفندق المشرف على استقبال الزوار ، ينبئنى بأن الحقائق قد بلغت مستقرها ، وأن حجرتى تناهب للقاءى .

ولم يطل مكوثى بالحجرة ، فنزلت منها الى « ندوة الكتاب » ، والليل مرخ سدوله ، والمصاييح الواجبة تبدد الظلمة ، وقد عقدت الندوة فى « دار الثقافة » حيث يقام مهرجان « أسبوع الكتاب » .

دخلنا قاعة فسيحة ، بل قاعات وقاعات ، فيها تحتشد دور النشر ، يزاحم بعضها بعضا فى منافسة شريفة مجدية . كل دار تحتل ركنات عرض فيه كنوز العقول والأذهان .

ان الكاتب اليوم ليستشعر الفخر والعزة بأن « الكتاب » لم يعد زخرفا كماليا كوردة تزين الصدر ، بل أصبح غذاء طيبا تعنى الدولة به وتعتد ، ولا تفتأ تكفل له عوامل التنمية والاتقان .

وجزت بآركان المعرض ، كانى أزور قادة الفكر وأعلام العلم والأدب ، فى صوامعهم الانيسة ، وقد امتلأت أرجاؤها بعبق زكى ينعش النفس ويمتع الروح . وانتقلنا الى قاعة المحاضرات ، ولك أن تسميها مسرحا للتمثيل ، ومثابة للعرض السينمائى . . . قاعة اكتملت لها وسائل التحضر فى توفير الراحة للاستماع وللاداء على السواء .

والتقينا هنالك بنخبة من شباب « أسوان » المثقف ، لمسنا فيهم براعم متفتحة واعدة بمستقبل مشرق ، وجلسنا اليهم ساعة أنيسة ، متنوعة كانت فيها أسئلتهم متتابعة متنوعة ، تشهد بيقظة وعى ، ولطف ملاحظة ، وشفف باستكشاف أسرار المشكلات التى تعن لخواطرهم فى قضايا الأدب والفن والاجتماع .

وكان يومنا الثانى فى طوفة جامعة للمدينة ، فزرنا « فندق الشلال » القديم وهو وصنوه الجديد متصلان بحديقة جميلة متدرجة ، تبهج العين بألوان ازهارها وأشجارها ونخيلها ، وما اكتست به أرضها ، وماتناثر عليها من مقاعد وظلات . وإن هذه الحديقة لتنجدر الى مرسى الزوارق البخارية والشرابية على ضفة النيل فى انتظار المتنزهين والمتنقلين من السياح .

وفى أعلى مدرج الحديقة مستشرف لطيف يقضى فيه الزوار أوقات النهار ، مستمتعين بلوح رائع ينبسط أمام العيون ، ذلك هو اللوح الذى نمقته يد الطبيعة الفنانة ، يلوح فيه النيل الساحر وقد مد أجنحته يمنة ويسرة ، فاذا المجرى خلجان ومسارب وجزر ، واذا هو فيه صخور وجنادل ، والأشعة البيض فى جيئة وذهاب ، كأنها حمائم سابحة على متن الماء ، وعن كنب جزيرة « أسوان » العتيقة تطل منها خرائب الأمس البعيد ، وفى بقعة خضراء وراها تبدو دار « البيجوم أغا خان » بيضاء ناصعة ، وخلف ذلك صحراء مترافية يرتفع على قمة فيها ضريح الزعيم الاسماعيل الكبير

هذا الموقع الفريد على روعته وفننته لا تطول جلستك حيائه ، فالوقت يمر ، وما جئنا لننققه استدفاء بالشمس ، أو استرخاء على الارائك ، ولكننا قدمنا للتعرف والتطلع والاستخبار ، فهيا بنا الى قلب المدينة نجول .

مضينا الى رصيف النهر « الكورنيش » ، وكلما أوغلنا فيه شاهدنا كيف الصراع بين الجديد والقديم ، هى حرب طاحنة شنتها روح التطور والتجديد ، على روح التخلف والجمود ، ففى كل مكان يحل المستحدث المبتكر محل العتيق البالى ، وانها لحرب حامية الوطيس ، ولكنها صامتة لا تسمع فيها جعجة ، بل ترى طحنا : اطلال تتداعى ، وانقاض تتزائل ، وفى مكانها تقوم منشآت تتسامى فى عزة وجلال .

يسير معك رصيف النيل مسافات قاصية ، وعليه من باسق الشجر صف معدود كأنه حرس يؤنسك على الطريق . وينتهى بك عند منطقة عامرة بمنشآت عمرانية كلها من مفاخر البناء العصرى : مسجد تعلو منذنته المربعة ، ناد للتجديف ، حوض 'المسباحة' ، دار للثقافة ، متاجر تنافس أحدث المتاجر فى الغرب - هذا الى المعاهد والمشافى ودور الضيافة . انها حقا مجمع بنائى شامل ، أو هى وحدة عمرانية نموذجية لمدينة المستقبل المرموق .

أنت تسابقين الزمن يا مدينة العصر القديم ، ولكأنك مومياء نفضت عن عينيها سمبات السنين ، ونهضت من ناووسها الحجرى تطرح عنها ألفاف الماضى السحيق ، فسرت فيها حيوية الحاضر ، ودبت فيها روح العصر الجديد ، وما هى الا أن اكتمل خلقها ، متوردة الوجه ، خفاقة القلب ، فارحة الشباب .

هكذا لايقيناك يا « أسوان » الفتية المتلألئة ، ولكن من ورائك « أسوان » أخرى تستتر فى حياء وخفر ، هى « أسوان » القرن الماضى ، ما برحت تتخذ المنزر، وتسدل

على وجهها اللثام ، وتحيا في جو عبق بالبخور : بخور الشرق الأصيل ، ينير غوامض الأخيلة وغرائب الأحلام .

أضافتنا تلك المدينة الشرقية ، وقتنا ، فذرناها طولا وعرضا ، حارات وأزقة متداخلة ، يسلمك بعضها الى بعض ، من حيث تدري ولا تدري . فانت هنالك ملامح فقد ابرته المغنطيسية التي يسترشد بها في معرفة وجهته ، فراحت مركبه تخوض الموج على غير هدى ، أو كأنك عابر صحراء ضل الطريق ، فانطلق يضرب في رمال متشابهة ، لا يبلغ بها غاية ، ولا يعرف معها من قرار . أو كأنك في تلك المتساهة المعروفة في الأعيب الملاهى ، تبدأ من نقطة ثم تدور وتدور وتحسب آخرها أنك انتهيت الى باب الخروج ، وإذا أنت حيث كنت ، ولكنك على الرغم من التيه والضيعة في مجاهل الحارات والأزقة لانحس من وحشة ولاضيق ، بل تانس بما يحوطك من طريف المشاهد في سوق عامرة بالف صنف وصنف ، أو مولد حافل بالمواكب والطبول ، فتود لو طال بك السير ، وتنامت عنك آخره المطاف .

ولاحت لنا فرجة طالعنا فيها رصيف النهر العظيم ، فقصدنا اليه نكمل جولتنا معه ، وآثرنا أن نعود الى الفندق راجلين . وماكدنا ندفع بخطانا حتى استرعى نظري مايشير الفضول : مركبة خيل لها حصان فرد ، ومازال هذا الضرب من المركبات له شأن في « أسوان » خاصة ، وأظنه بات جزءا لا يتجزأ من معالمها الأثرية الباقية على وجه الزمان .

ورأينا حول المركبة جمعا من السياح ، هم أسرة واحدة : أب وأم وصغار ، عدد النمل ، يتأهبون للركوب . ولكن أنى لهذا الصندوق الخشبي الأثري أن يستوعب هؤلاء جميعا ؟ وما لبثت المعجزة أن تحققت أمام جمهرة من السابلة تكاثروا ليستمتعوا بذلك المشهد الألباني العجيب . وكان من الطبيعي أن يتبوا الأبوان مكان الصدارة ، تاركين لكل من غلمانهم وبناتهم أن يختار المكان الملائم له ، وفقا للقانون الغاشم : حق الأقوى . ومانشبت المعركة حتى انتهت بسلام . وشاهدنا المركبة وقد نبئت على جوانبها وفي أنحائها براعم متحركة أو شكت أن تخفى هيكلها عن الانظار ، ففي كل شبر منها مخلوق غائص في مكانه ، أو متشبث به ، أو متسلق له ، حتى أن كومة البرسيم تحت قدمي الحوذى لم تضق بغلام أو غلامين .

وراقنا المشهد الطريف ، فتعالت أصواتنا نحن الجمهور ضاحكين ، وإذا المركبة بمن فيها تشاركنا في الضحك ، والكل يتمايل طربا ، حتى الحوذى المهشم ، إلا مخلوقا واحدا ترفع أن يقاسمنا ذلك المرح الشامل ، وأعنى به الحصان الهزيل ، وهو مشدود الى عريشه بأحزمة من جلد ، مغلوب على أمره ، لا يملك الفكاك . لقد كان انسكين يتلفت حواليه ، ليرمق الجمع الفرح المهتاج بنظرات تنطوى على صبر واذعان . ولبثت مليا أرمق ذلك المخلوق الناعس ، وأنا احس التوجع له . انه مائل في وقفة نمر عن نبل حزين ، فهو لا تختلج فيه عضلة ، ولكن تستبين على محياه كآبة خرساء .

شد ما رقت نفسى لهذا الحيوان الأعجم ، مرودت لو تقدمت اليه أقبل غرته ،
وأناجيه بقولى :

لا تأس أيها الصديق الكريم ، فانت فى محنتك عظيم أى عظيم • احتمال الثقل
الذى هبط عليك ، وسر به فى شهامة واقدام • واعلم بأن الحياة أعباء وأحمال وكلنا
من حملة الاثقال ، والبطولة تتجلى فى شجاعة الصبر وقوة الاحتمال !

وكانما بصر الحيوان بى ، وكانما فهم ما أناجيه به ، فقد بان فى نظره لمحات
شاكراً مستجيب ، وانبسخت أساريره ، ولاحت عليه طمأنينة وهدوء ، وصاح الحوذى
المهشم بصوته المتحشرج صيحات لم يفهمها الا حصانه ، فتحركت المركبة ، واشتدت
الجلبة ، ورفع الحيوان رأسه ، وأحد من نظره ، وسار متخطراً على الطريق ، وكأنه
حصان فرعون يجر عجلته الحربية الى ساحة القتال !...

